مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:06/ العـدد:01 جوان (2022)، ص153/166

الرؤية الاجتماعية وتحولات الوعي الأنثوي في قصة" الظلال الممتدة" لزهور ونيسي

Social Vision and the Feminine Awareness Transformations in Zhor Ounissi's "The Extended Shadows"

فاطمة قسول
f.kassoul@univ-blida2.dz
جامعة علي لونيسي بالعفرون ـ البليدة 2 ـ (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/01/05 تاريخ القبول: 2022/05/06 تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص:
تعتبر قصة "الظلال الممتدة" أو "قصة زينب" لزهور ونيسي، صورة من صور تحوّل الذات الأنثوية من النمط التقليدي، إلى نمط المقاومة واندماج الحس الاجتماعي بالحس الوطني، فالمقال يهدف إلى رصد م مسار تحوّل الشخصية البطلة من ربة البيت الجاهلة والمهمشة، إلى ذات أخرى أكثر وعيا بواقع أزمة تجنيد السلطات الاستعمارية للشباب الجزائري.
عبر خطاب الذاكرة الاسترجاعي، أسّست الكاتبة رحلة الوعي، في إطار رؤية اجتماعية انطلقت فيها من ذاتها ،التي انتفضت ضدّ المفاهيم الذكورية، والتي تقوّض المرأة وتجعلها لا تعي قيمتها ووجودها.
وعن أهم نتائج البحث فتمثلت في أنّ وعي الشخصية البطلة بذاتها وكينونتها ولد من رحم الأزمة، حيث تتشكّل الذّات الأنثويّة داخل القصة بإدراكها لها، وبأنها جزء من منظومة مجتمع جاهل ؛ لا يعني الرضوخ والاستسلام، وعدم السعي إلى التغيير،كما تبيّن لنا أن رحلة الوعي تجلت في مرور الذات الأنثوية بمرحلتين، من الوعي القائم إلى الوعي الممكن.
كلمات مفتاحية: الرؤية الاجتماعية؛الوعي؛الذّات؛ الأنثويّة؛ التحوّل.

Abstract:
Zhour Ounissi's story "The Extended Shadows" is an image of the feminine transformation from the stereotypes to the resistance and social-national sense. This article aims to monitor the female protagonist's transformation from the Ignorant, marginalized housewife, into another self who is more aware of the crisis of the Algerian youth recruitment by the coloniser. Through the discourse of retrospective memory, the writer established a journey of awareness, within a social vision, launching from herself and rising up against Patriarchy that undermines women. The most important results were: the protagonist's awareness was born inside a crisis, where being a part of an ignorant society does not mean giving up changing, for the journey of the female self-awareness starts from the existing awareness to the possible awareness.
Keywords: *vision social; awareness; self feminine; transformation.*

مقدمة:

تعصف بالإنسان هموم ومشاكل اجتماعية، يسعى الأدب بمختلف أشكاله التعبيرية، تسليط الضوء عليها ومعايشتها، وزهور ونيسي واحدة من الأصوات النسوية الجزائرية الكثيرة التي كشفت مأساوية الواقع الاجتماعي، فلقد عايشت كل هم وطني أوجع بنى جلدتها، لتتعاطى معه وتقف على تصويره بعين المتخيل الأنثوي، التي تنم عن رؤية فكرية اجتماعية خاصة ومختلفة، تتفهم القضية بجميع أبعادها ومن مختلف زواياها.

فالحديث عن الكاتبة ال**ممثلة للجيل الأول المؤسّس** للإبداع القصصي الأنثوي **في الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، قد يطول بنا لصفحات ولا نكفيها حقها،** باعتبارها من **المبدعات اللواتي ساهمن في إثراء المكتبة بأعمالهن المميزة**، التي استطاعت التعبير عن المحن والشدائد التي ألمت بالمجتمع الجزائري بمختلف طبقاته، فالفقر والبطالة والجوع، الغربة، التعليم وقضايا المرأة... ومشاكل كثيرة كان لها نصيب الحضور في متونها الروائية والقصصية،" والذي يعرف عناء الكتابة، لا يمكن إلا أن يعجب بالجهد الذي تبذله .. في الجانب الأدبي، بجانب مسؤوليتها العائلية والنضالية والحكومية، ويرجوا أن يتواصل هذا العطاء، ولا أعتقد أن تفرغ .. ونيسي للكتابة سيكون لصالح الإنتاج الأدبي، لأن إنتاجها يستمد أساسا من نضالها والتزامها ومن نشاطها اليومي في ميادين هذا النضال والالتزام"[1]، الذي جسدت من خلاله صورا تعبيرية لمجتمع هش، تنزع ذوات أفراده نحو الخلاص، والتغيير بتقديم حلول تحمل بهم نحو مستقبل بعيد عن كل هذا البؤس والقهر ، وتحقيق طموحاتهم و أمنياتهم، وكل ذلك في إطار توليفة بين رؤية اجتماعية ترى أن الإنسان أساس المجتمع، ورؤية أدبية تراه جوهر العملية الإبداعية الفنية الجمالية، وأخرى ذاتية تجلّت عبر دوال وعلامات وعناصر جمالية أضفت " مياسم ومواسم وفصول ومفاصل الاختلاف، فقد اتخذت الكاتبة الجزائرية من ذاتها ونواتها، مرجعا أساسيا في ممارسة طقوسها للكتابة، ومن خلال المغامرات الفردية، وما وسمها من أشكال الصراع وحالات الإخفاق وحالات تحقيق الذات، ووقائع ووقوعها بين مخالب وفكي وطن جريح، فكانت كتاباتها كتابة ذاكرة مجروحة، من انشغالها على شروخ وتضاريس الذاكرة، وأغوارها المتفجرة"[2]

وعن دراسة المجتمع من منظور أدبي، فما هو إلا بحث عما ينفع الإنسان فيلتزم به ويعتمده في حياته، وما يضره فيقصيه ويُبعده، فالبحث فيه نابع من مرونة ما يتميز به الأدب من حيث أن[3]:

*له وظيفة ضمن البناء الفكري داخل أي مجتمع إنساني.

* ليس انعكاسا بسيطا ومباشرا لصورة الواقع الاجتماعي.

* فهم المضمون الاجتماعي في الأعمال الفنية لا ينحصر في التقاط بعض جوانبها، التي تعكس الواقع الاجتماعي، وانما يتطلب امتلاك قدرة خاصة على تحليل بنياتها التخييلية، من أجل التوصل إلى رؤية المبدع الخاصة، هذه الرؤية التي تكون في الغالب متوارية خلف البناء السطحي للعمل الفني.

فالرؤية الاجتماعية وحضورها في النص الإبداعي، تعدّ أحد أهم المراجع التكوينية، التي تجسّد وتحقّق عبر بنيتها الدلالية التوجه والمنظور الفكري للكاتب، والأدب بمختلف أشكاله وان كان مرآة الواقع الاجتماعي ولكنه ليس تصويرا حرفيا له، إنّما هو شكل من أشكال الانعكاس النوعي، الذي يرى العمل الفني باعتباره قادرا على صياغة العالم فنيا، على نحو أكمل وأشمل ،وليس مجرد انعكاس بارد له، " يشبه الحياة في مراعاته للتتابع السببي، ولكنه لن يكون أكثر من سفر أخبار تعسفي إذا لم يكن هناك قلب لهذا الاتجاه"[4].

ولما كانت المرأة أو الذات الأنثوية من أكثر قضايا المجتمع أهمية، انبرى قلم الكاتبة ونيسي، لتسليط الضوء على ما تعانيه من مشاكل في ظل مجتمع ذكوري حرمها حق اتخاذ القرار، وتحويلها إلى كائن سلبي رهينا للجهل والعادات والتقاليد، حيث أمسى همها الأكبر التعبير عن همومها وحقوقها، والانتصار لها وإبراز دورها الريادي في المجتمع كأم، زوجة، مناضلة ومقاومة للاحتلال، ويعتبر نموذج الأم المناضلة في قصة " الظلال الممتدة"، صورة لتحوّل الذات الأنثوية من النمط التقليدي، إلى نمط المقاومة واندماج الحس الاجتماعي بالحس الوطني ، وفكرة "انتقالها من شخصية الأم الخاصة إلى شخصية الأم العامة، بما تحمله من صفات الأمومة الممتدة، لتشمل كل أبناء الوطن المؤمنين بحريتهم وخلاصهم من الظلم" [5].

وعليه سنرصد علاقة الفن القصصي بالرؤية الاجتماعية في المجموعة القصصية"الظلال الممتدة" لزهور ونيسي، التي تضم خمسة قصص (الظلال الممتدة، حديقة الله، مجرّد عتاب، الشيئ المؤكد، موجة برد)، "مثالا على ما يمكن أن يعطيه هذا التفاعل من دفع لأدب القصة، متصلا بجذور المجتمع متطلعا إلى أفاق المستقبل الرحبة، وهو يتميز عن المحاولات الجامحة بعيدا عن جذور المجتمع، وعن التقوقع العقيم حول مفاهيم ضيقة لقيم المجتمع وتفاعلاته"[6]، دراسة نتجاوز فيها تلك العلاقة السطحية التي تقوم على استخراج مظاهر الحياة الاجتماعية من المتن القصصي، ومقابلتها بالواقع، وأنها تعبّر بشكل مباشر عنه، وأن المبدع "يمتلك القدرة على عكس الواقع وفق مبدأ المحاكاة الأرسطي، والأكثر من ذلك أنها حتما

ستنطلق من فكرة، مفادها أن الفن الأدبي لا يتعدى مجرد عكس الواقع، ومن ثمّ تلغي وظيفة الأدب في المجتمع، كما تنفي تبعا لذلك أي علاقة جدلية بين الواقع والفكر" [7]، وإنما نصبوا إلى الوقوف على طبيعة الرؤية الاجتماعية في القصة، ووعي الذات الأنثوية بطبيعة هذا الواقع وتحولاته، والتي أدّت إلى "ولادة خطاب نسويّ جديد، بوصفه خطابا تستبطن الكاتبة داخله همومها وتطلعاتها، تأريخا لرؤية وموقف من الواقع الاجتماعيّ، والوعي الجديد." [8]

إنّ تصوير أثر الرؤية الاجتماعية فى البناء الفني في قصة " الظلال الممتدة"، يستلزم بالضرورة الوقوف على المدركات التي أسهمت في تشكيلها، بالإضافة إلى التعاطي مع المنظور الفكري للكاتبة زهور ونيسي ورؤيتها للواقع وموقفها منه، ونظرتها إليه وكيفية الطرح والمعالجة، واختيار أدوات التعبير المناسبة، التي تتضح من خلالها "قدرتها على الاستجابة، أو عدم الاستجابة للتغيرات المجتمعيّة الجديدة، ضمن مساحات متفاوتة من النجاح والإخفاق، تعتمد على درجة الحرية المتاحة التي تتنازعها ظروف مكانية،وتاريخيّة، وسياسيّة، وثقافيّة متفاوتة، وتعتمد على درجة الوعي لدى الكاتبة، ومقدار تمكنها من تقنياتها الفنيّة والجماليّة، والعمل على تطويعها" [9] في سبيل خدمة المضامين القصصية،لأنّها بالنسبة للفنان المبدع "لا تصبح مؤثّرة في اختياره لموضوعه فحسب، ولكنّها تصبح أيضا مسؤولة عن اختياره للتكنيك الفنيّ، الذي يتناول به هذا الموضوع، ويبقى على الفنان بعد ذلك، أن يكون قادرا على اكتشاف أداة فنه سواء أكانت الكلمة أم الصورة أم الأداة، وقادرا على توظيفها للتعبير عن رؤيته الخاصّة" [10].

فما هى المدركات التى أسهمت فى تكوين الرؤية الاجتماعية، وتشكيل مسار وعي الذات الأنثوية في قصة "الظلال الممتدة" (قصة زينب) لزهور ونيسي ؟.

للإجابة على هذا التساؤل نعتمد في دراستنا المنهج البنيوي التكويني، لما لهذه القصة من معايير الجماليات الاجتماعية والجماليات الأدبية، التي تخولنا الولوج إلى عالم النص من الداخل (الشكل، البنية، البطل....)، ومن الخارج إذ يوظف مفاهيم نقدية اجتماعية، فهو منهج نقدي اجتماعي ماركسي يزاوج بين شكل المضمون ومضمون الشكل، كما أن مقاربته للنص الأدبي، تعتمد على مجموعة من المفاهيم الأساسية أهمها: الفهم والتفسير، البنية الدالة، رؤية العالم ، الوعي القائم والوعي الممكن، واستنادا على هذا الأخير الذي نعوّل التركيز عليه، عبر إبراز وعي الشخصية الأنثوية ومسار تحوله، بالإضافة إلى رصد أهم المدركات التي ساهمت في هذا التحول، ودرجة تلاؤمها مع الوقائع.

2ـالإهداء/ زهور ونيسي ومستوى الوعي من الذات إلى المجتمع:

يمثّل العمل الأدبي " رؤية للعالم لدى الطبقة الاجتماعية و يجعلها تنتقل بوعيها من الوعي القائم إلى آخر ممكن" [11]، والكاتبة زهور ونيسى مؤمنة بقدرة بالإنسان على فهم الواقع وإحداث التغيير فيه، وهذا ما جسدته في تجربتها القصصية "الظلال الممتدة" ذات العمق الدلالى فى تصوير الواقع الثوري الاجتماعى الجزائري، عبر بطلتها زينب ذات الشخصية المتمردة، أولى القصص التى آثرت ونيسى أن تسند عنوانها للمجموعة القصصية ككل، مقدّمة عبرها صورة عن المرأة المناضلة، التي أبت الرضوخ لواقعها اليائس وأفكار مجتمعها المستسلم والمسلّم لجهله، وأن كل ما يعيشونه مقدّر ومكتوب في نظرهم، وكيف انتقلت من مرحلة الوعي القائم إلى وعي آخر ممكن متجاوزة الواقع وظروفه التى تعيشها.

وقد عالجت الكاتبة صورة الوعى لدى المرأة الجزائرية، فى تجاربها القصصية والروائية وفق منظورين اثنين [12]:

* الأولى: ممثّلة فى صورة مساهمة المرأة فى الثورة دون امتلاكها للحس الثورى مباشرة، وانما تسرى روحها فى أعماقها.

*الثانية: صورة المرأة الثائرة الواعية، التى انخرطت فى صفوف جبهات التحرير، مسكونة بالثورة ليل نهار، وكل ثائرة على الوضع الراهن من أجل التغيير والتنوير والتجديد.

أضف إلى ذلك، فإنّ تصويرها لصورة الوعى لدى المرأة الجزائرية تنطلق " من قناعاتها وتجربتها دون شطط، كأنها تحاول أن تحارب السوء دون إساءة إلى صاحبه، وتقوّم المعوّج فى رفق وأناة، كأنها تعظ أو كأنها تعلّم، فهى تنتصر للمرأة دون تحامل على الرجل، وتقسو على الظلم بإبراز نضال المضطهدين، وتترك لهؤلاء وتلك باب الأمل والمستقبل عريضا مفتوحا مطلا على الابتسامة والإشراق" [13].

فانتصار القاصّة للمرأة بدأ من ذاتها، محطمة أغلالا وأصفادا طوّقتها بمساعدة والديها، لتسلك طريقا وعرا مليئا بالمواجهات مع المجتمع، وطويلا من النضال، معلنة انضمامها لطابور الكاتبات العربيات، اللواتي احترفن تعرية الواقع،"

فاختيار المرأة للكتابة، يعني رغبتها في أن تكون، وأن تحقق وجودها، وتحقق ما يمكن اعتباره تجاوزا لوضعها الحالي، وبذلك تصبح الكتابة بالنسبة للمرأة، نوعا من الخلاص والتحرر، لأنها لم تجد لنفسها موطئ قدم إلاّ بالكتابة، التي من خلالها تحاول أن تعكس حضورها ووعيها بالعالم"[14]، لتكون قصّة (الظلال الممتدة) عبر شخصية زينب، انتصارا للمرأة التي قدّمت في ظلها انعكاسا للذات الأنثوية الواعية، والتي استطاعت أن ترتقي بفكرها برغم الجهل الذي سيطر على المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال الفرنسي، وقبل أن تنتصر للمرأة الجزائرية كان انتصارها الأول لذاتها الحرّة، التي انتفضت لتقول كلمتها في ظل مجتمع ذكوري، يميّز بين الولد والبنت، متخذة من الكتابة قناة لتشريح وضعها ووضع كل بنات المجتمع، وإيصال قضيتهم إلى العالم، ومعاناتهم في ظل سيادته المطلقة، التي قيّدت روحها بعادات وتقاليد بالية، فكتبت لتحرر نفسها وغيرها من بني جنسها من براثن الجهل والعبودية، فبممارستها للكتابة، وقفت" أمام أسئلة حادّة، عن الدور الذي يمكنها أن تصطنعه لنفسها في لغة ليست من صنعها، وليست من إنتاجها، وليست المرأة فيها سوى مادة لغوية، قرر الرجل إبعادها ومراميها وموحياتها، وفي هذا الوضع، هل بيد المرأة أن تكتب وتمارس اللغة واللفظ الفحل، وتظل مع هذا محتفظةً بأنوثتها؟"[15]، طريق شائك اختارت المضي فيه وتجسيد ذاتها كأنثى، عززت مكانتها بالإنتاج المعرفي، الذي سعت به إلى التأكيد دائما على قوة وجدارة المرأة.

تقول ونيسي بأنّ نجاحها في عالم الكتابة، يرجع إلى والديها أصحاب الفضل الكبير، اللذين تهديها مجموعتها القصصية (ظلال ممتدة).

" إلى الوالدين العزيزين

علي أونيسي الذي توفي وهو سعيد بثمار تربيته.

وزكية أونيسي التي لا نزال نستمد منها البركة والدعوات.

إليهما وقد سبقا عصرهما في نبذ الذهنيات المريضة ، التي تميز بين البنت والولد: في ظروف كان ومازال يصعب فيها ذلك"[16]

فعتبة الإهداء تضعنا ضمن نظام اجتماعي عايشته الكاتبة، أعطى الذكر أحقية امتلاك زمام الأمور في كل شي، رؤية نمطية تهمش المرأة وتقلص من حجمها وتقوّض حريتها، وترى الذكر دائما وأبدا مركزا، ويرجع هذا المفهوم الضيق إلى قلة الثقافة والعلم والوعي بمدى أهميتها ودورها الفعال في تنمية المجتمع، رافضة تلك الرؤى المتحيزة والتي تنظر من عدسة ذكورية، انخرطت فيها الأنثى رغما عنها، رؤى هي الأصح والأهم لكنها ليست السليمة والصحيحة، ولدت من رحم البيئة والتنشئة والتربية الأسرية، تفاعل المجتمع معها وتبناها دونما تحديد العوامل والمؤثرات التي ساهمت في تشكيلها، برغم تأثيرها الكبير الذي تمارسه على الصورة الكلية عن الذات والعالم.

استطاعت ونيسي تجاوز وتغيير هذه الرؤى بالإنتاج المعرفي، وبكونها أصبحت قاصّة بفضل دعم والديها، اللذين تجاوزا تلك الذهنيات المرضية كما وصفتها، وانكارهم فكرة التمييز بين الجنسين، فالبنت والولد كما هو معلوم وان اختلفا على مستوى الكادر الجسدي إلاّ أنهما يشتركان في الخصائص الإنسانية والقدرات الذهنية نفسها، غير أن من صنع الفارق بينهما هو المجتمع، وبتعبير آخر التنشئة الاجتماعية، فكاتبتنا احتضنها جو عائلي سوى، عبّد لها الطريق لتجاوز كل العراقيل التي فرضها المجتمع الذكوري، وعزّز ثقتها بنفسها، واستطاعت إثبات نفسها ورسم مستقبلها، بقدرتها على "ممارسة السرد وتمثيل الذات الكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة القومية، التي تقوم بتنظيم الذاكرة الجماعية، وتعزيزها والحفاظ عليها، وتحصين الهوية والحفاظ عليها، وحمايتها من الأجسام الدخيلة والمعادية، وان أولى الناس بتمثل هذه الإرسالية، لهم المثقفون والمبدعون، الذين يستجيبون لضرورات العصر بطرائق متعددة"[17]، تعمل على قراءة الذات الأنثوية، وترميم تصدعاتها من أجل تأسيس مجتمع متوازن.

علاقة صحية مع النفس، أساسها التنشئة الاجتماعية التي جعلتها تتعرف على شخصيتها، وماذا تريد أن تكون مستقبلا بشكل شفاف وصريح، بعيداً عن أي ضغوطات وقوالب اجتماعية، فالزهور ترى أن الحل في تجاوز هذا التمييز بين الولد والبنت، وازالة مفهوم المجتمع الذكوري، وتغيير هذه النظرة الهادرة لحقوق المرأة الإنسانية، تبدأ من البيت، الذي يحتويها وينظر إليها كذات إنسانية تستحق المحبة والعدالة، واحتواء قدراتها التي تفوق الكثير من الذكور،"فالنشأة وأسلوب التعليم، والثقافة الرائجة والمؤثرات القائمة، التي تعمل على حفز الرؤى والتصورات، حتى تبرز للعيان تلك الرؤية التي يتقمصها الفرد، ويعمل للدفاع عنها بوصفها أصلا لا يمكن الحياد عنه، فيما تضيع فواصل الصحيح

و الخاطئ، وسط سيادة قوة الهيمنة والتأثير الذى تمارسه على عقل المرء، باعتبار الانحياز الذى يتسلل فى صميم الذات على الرغم من الإعلان والمجاهرة بنبذه واعتباره شرا مستطيرا، يجب الخلاص منه،إنها الرؤية التي تتخذ موقعها الراسخ في الذات، شاء المرء أم أبى"[18].

فعلى ونيسي توفى وهو سعيد بثمار تربيته، فابنته زهور أصبحت كاتبة قاصة، وان كان هو قد ثار على المجتمع الذكورى وأمسك بيدها نحو حلمها ، فإنها اليوم وعبر أعمالها الأدبية تعبّر عن رؤيتها للمجتمع والعالم على حد سواء،ثائرة بجُرأة كبيرة ضد الثوابت البالية التى رسمها المجتمع العربى بعامة والمجتمع الجزائرى بخاصة على المرأة، والتى كبلتها وأقصتها من بناء مجتمع متكافئ وديمقراطى، يؤمن بقوة الحرية والعلم، امتنانا للتنشئة الصحيحة التى قوّت من شخصياتها وجعلتها تعبر عن ذاتها ومجتمعها بتجاوز " الوعي الخاطئ (الزائف) الذي يحبس نفسه داخل مضيق القيم الفاسدة"[19] ، والتي تسعى ككاتبة القضاء عليه.

لا تنس الزهور بركة ودعوات والدتها زكية ونيسي، التى رافقتها وكانت شعاعا أنار لها درب الكتابة والإبداع، فالمرأة "حين تكتب تفكر عبر أمهاتها، ولعل هذا هو ما يمنحها الشجاعة، لأن تغادر صورتها التى رسمتها لها أنساق المنظومة الذكورية، ككيان ثانوى بلا صوت ولا إرادة، معلنة عن نفسها وقد انتفضت ضد الكبت، ورفضت كل صور الإقصاء والمصادرة، فضحا للتقاليد البالية والعادات المتهرئة التى تجور على المرأة، وتنتقص من قيمتها الإنسانية"[20] ، فزكية خلقت فيها روحا لا تعرف الخضوع والاستسلام، وأن حلم الكتابة لديها يوما ما سيتحقق، لتصبح صوتا من الأصوات النسائية الأكثر بروزا في عالم القصة والرواية،" اللاّئي استطعن أن ينطلقن في الساحة الأدبية ويفرضن وجودهن، ويعبرن عن آرائهن وأفكارهن بكل شجاعة، من خلال نضالها الثوري وأعمالها الأدبية في مجال القصة والرواية، التي تخطّت الحواجز، وخرجت إلى الحياة الثقافية بكل شجاعة، لتسهم في بناء الحركة الأدبية النسائية في الجزائر"[21].

لم تكتف القاصّة بإهداء واحد، بل نجد عتبة أخرى لإهداء ثاني، ومدرك آخر من المدركات التي أسّست لتشكيل وتكوين رؤيتها الاجتماعية، ودال من الدوال على معنى الحكايات المروية، التي تقدم فكرة واضحة عن أحداثها، نستشفها من خلالها التعالق بين العتبة الإهدائية والمتن القصصي، حيث تهدي ونيسي مجموعتها القصصية إلى:

"بطلي هذه القصة الواقعية الملحمة

الأخ المجاهد سي عمار والأخت المجاهدة زينب وهما ينعمان اليوم بالذكرى العشرين لحرية الجزائر

كل من موقعه.... ولقد كان الموقع واحد.... الظروف واحدة... الجزائر... "[22]

فالثورة الجزائرية ألقت بظلالها على مختلف الأجناس الأدبية، وقصص (الظلال الممتدة)، واحدة من الأعمال الفنية، التي أفردتها زهور ونيسي لتصوير واقع الثورة، والمشاكل المجتمعية الجزائرية بكل امتداداتها المختلفة، "فالمرأة الجزائرية المثقفة، لم تكن بمعزل عمّا يحدث بوطنها، على اعتبار أنها تمثل جزءا من المجتمع الجزائري، بل وطرفا فعالا فيه، وفي تنميته والنهوض به، لذلك أدركت مسؤوليتها ودورها في الوقوف إلى جانب أخيها الرجل في محاربة الاستعمار الفرنسي، والاضطهاد الممارس على الشعب الجزائري، فكان ارتباطها وطيدا بالقضية الوطنية، كما ارتبطت بأرضها وتربتها، واشتغلت على هموم مجتمعها وانشغالات أفراده، فكان إحساسها فطريا بالمعاناة والآلام، وهذا الوعي يكشف لنا عن التزامها بالقضايا المختلفة، التي تتعلّق بالمرأة الجزائرية، ودورها النضالي في الثورة التحريرية الكبرى، وثورتها على شتى أشكال الظلم والاضطهاد الممارس عليها"[23]، فواقعية الملحمة في داخلها وأثرها على المجتمع ووعيها بها، تجلّت عبر هذه العتبة، التي ترصد نموذجا حيّا من الوطنيين، المجاهدين سي عمار والأخت المجاهدة زينب، اللذين عايشا الثورة التحريرية، وشهدا بزوغ شمس حرية الجزائر واستقلالها،مؤرخة بذلك لمقاومة امتدت في روحهم ظلالها وبقيت راسخة في وجدانهم ووجدان كل الجزائريين .

وعليه فإنّ (الظلال الممتدة) كمجموعة قصصية، تجلّت عبر تطرق الكاتبة لقضايا المجتمع والمرأة، انطلاقا من ذاتها التي نفضت عنها غبار العادات البالية بمساعدة والديها، اللذين طوقاها برعايتهما لها، إلى أن أصبحت رمزا من رموز النضال الجزائري، لتعكف بروحها المتعلقة بالحرية والاستقلال على معايشة الثورة، التي أخذت" أبعادا متشعبة ومعقدة، عندما تصدر عن امرأة، حيث تتجلى معاناة مضاعفة، تعكس ضرورة اتساع العالم الداخلي للمرأة المبدعة، بما يحمل هذا الاتساع من مشكلات وخصوصيات وتحديات مغامرة "[24].

فعتبة الإهداء وفقا لذلك لم تأت منفصلة عن العنوان من ناحية، وعن المتن من ناحية أخرى، ليشغل امتداد ظلال الثورة تاريخ قصة زينب المروية، فهي القصة الوحيدة من بين كل القصص، التي تحكي عن فترة الاحتلال الفرنسي والثورة الجزائرية، والدور الريادي للأم المناضلة، أما الأربع قصص الأخرى فهي تؤرخ لفترة ما بعد الاستقلال، والمجموعة ككل تعبر عن حالات اجتماعية ترمز لتجارب إنسانية.

وعن علاقة هذا النص الموازي بقصة "الظلال الممتدة"، وافتتاح الكاتبة مجموعتها به ، فإنما هو جنوحها إلى إثارة قضية مقاومة المرأة للاحتلال، متخذة من الإبداع وسيلتها للوعي، وصولا بالذات الأنثوية إلى مرحلة أخرى، مرحلة التحرر وفهم الكينونة، المرأة التي انتصرت لها ابتداء من ذاتها، وحررتها من قيود العادات والتقاليد، لتكون قضيتها الأولى في مجموعتها، وتقدّم زينب في صورة المرأة والذات الأنثوية المتحوّلة والمتغيّرة مع أطوار أزمة الاحتلال ووعيها بها، حيث تصبح أحد نماذج المرأة البطل، التي جسدت في ضوءها، صورة من الصور الواقعية " لحركة المرأة من أجل تحقيق هويتها، داخل نطاق صراع مرير، يدير دواليبه مجتمع متشبع بثقافة وقيم الميز والتحقير لكل ماهو أنثوي" [25].

2 ــ زينب/ وعي الأزمة وتحوّل الذات الأنثوية:

تضمّنت مجموعة (الظلال الممتدة) كما سبق وقلنا خمسة قصص، تلامس جوهر قضايا الإنسان عبر تيمة الثورة التحريرية، وعمقها القوي في تفكير وذهنية الشعب الجزائري، فالكاتبة تدرك" جيدا حجم الأمانة التي تحملها اتجاه وطنها، لذلك جعلت من هذا الحدث الهام مدار اهتمامها، فجعلت منه الحدث الأهم والأعظم ضمن مضامين كتاباتها "[26]، فالحالة الاجتماعية الجزائرية والهموم الوطنية، كل هذا تستعرضه انطلاقا من ذاتها الرافضة الرضوخ للعادات والتقاليد البالية، والتي تعطي للرجل الأولوية في كل شيئ، لتأتي "مجموعات القصص التي أنتجتها الأخت زهور ونيسي، فيما أنتجت مثالا على ما يمكن أن يعطيه هذا التفاعل، من دفع لأدب القصة متصلا بجذور المجتمع، متطلعا إلى آفاق المستقبل الرحبة، وهو يتميز عن المحاولات الجامحة بعيدا عن جذور المجتمع، وعن التقوقع العقيم حول مفاهيم ضيقة لقيم المجتمع وتفاعلاته، وتفاعلات المجتمع الجزائري، تستشف من قصص الأخت زهور ونيسي في صور صادقة متكاملة، ولعل الحرص على هذا الصدق هو الذي يجعل القارئ في بعض الأحيان، يتخيل صور الحياة تقفز إلى سطور القصة، دون أن تأخذ في طريقها اللباس الفني، الذي يطغى عند بعض القصاصين عن الحقيقة حتى يحجبها" [27].

انتصرت ونيسي لذاتها ولمجتمعها عبر تسليط الضوء على قضاياه ومشكلاته، حيث نلمس في مجموعتها نوعا من الالتقاء بين رؤية العالم كواقع معيش، وبين رؤيتها للعالم كمبدعة، لتمسي قصصها تجسيدا حيا لمحاولة الطبقة الاجتماعية المحكي عنها تغيير واقعها، والذي نلمسه من أوّل قصة افتتحت بها مجموعتها، (الظلال الممتدة أو قصة زينب)، والتي تركز فيها على واقع المرأة الجزائرية إبان الثورة الجزائرية، ممثلة في (زينب) المرأة الأميّة التي اقتادت ابنها بيدها إلى الجبال، وسلمته للانضمام إلى صفوف المجاهدين، رافضة الخنوع لطلب الإدارة الفرنسية الاستعمارية بتجنيده في صفوفها،

فالقصة تحيلنا إلى أنّ هذه المرحلة التاريخيّة التي تروي أحداثها، شهدت تغييرا في الواقع الاجتماعيّ،" بحضور مرحلة جديدة من الوعي، في التعامل مع المرأة التي بدأت تصبح أكثر تيقّظا، وفهما لكينونتها ومكانتها الاجتماعيّة، ولابد أن تنعكس هذه التغييرات على الأدب النسويّ، بوصفه خطابا تستبطن الكاتبة بداخله همومها وقضيتها "[28]، وتؤسّس من خلال بطلتها رؤيتها الاجتماعية، التي كسرت في ظلها نمطية الصورة المعروفة عن المرأة، و تقدمها في صورة النموذج لكل نساء العالم، بتجاوزها لضعفها، وبأنها مطالبة بحماية أولادها ووطنيتهم وهويتهم، بعد غياب الزوج والتحاقه بالثوار، أو بالأحرى هروبا تاركا إياها تصارع الحياة مع حماها الشيخ وولديها.

" وهاهو زوجها يختار الهروب، ويتركها لهذه المصائب... وحموها لا يريد أبدا أن يفيق أو يتكلم في شيئ، فما بالك بالتفكير في مثل هذا الأمر أو غيره من الأمور.. إنه أصبح كالفاقد للحس" [29].

فعبر توظيف فعل الذاكرة الاسترجاعي وسردها، والذي يمثّل" مجالا واسعا للتعبير بطريقة تتداخل فيها المشاعر والعواطف والأفكار في قوالب الأحداث"[30]، ويسمح برصد تفاصيل ماضي زينت المنقضي، قبل خمس وعشرين سنة، "واستنتاج رهانات قصدية على وفق التحفيز لغاية ضميرية نضالية، تشرئب إليها الأنظار، وبعد المدى الذي يصب في جوهر البحث عن الحق المسلوب، والتنكّب عن الشعور بالظلم، والقمع، والإذلال، والإخضاع، وقد تعاملت مع هذا الصوغ الوصفي في دلالاته المهيمنة التي تتمظهر في السرد، وعلى الرغم من كونه صوغًا مباشرًا، فإنه كان يفصح عن موضوع

يغلب عليه مقاربة الطابع الذاتي/ الموضوعي؛ أي الطابع الذي يجمع بين الحالة الشخصية لكل مواطن في جوهر هويتها، والحالة المشتركة الموضوعية للمصير المتساوق، والإرادة المتلاحمة، والإحساس المتكتل، النابع من رغبة الوعي في إدراك المواطنين المخاطر المحدقة بهم من جراء الاحتلال العاسف، وإذا كانت القيم الذاتية تفرض على ما كان مصدره الوعي المانع لكل ما هو قائم على المصلحة أو التحيز، فإن القيم الموضوعية تفرض على الوعي الارتكاز على رصد الوقائع بإجادة، سعيا للوصول إلى رَدّ الحق المغتصب، ونشر النضال المشترك، المتسم برصد الوقائع التاريخية للنضال"[31] ، فخطاب الذاكرة رصد مسار الذات الأنثوية وتحولها عبر تقنية الاسترجاع.

"كان ذلك قبل خمس وعشرين سنة..." [32]

" ورجعت زينب..من رحلتها القصيرة عبر ماضيها البعيد..

رجعت على صوت حبيب عذب .. يتساءل:

ــ جدتي ألا تشاركينا قهوة العصر ؟"[33]

فماضي رحلة وعي الشخصية البطلة وذاكرته، يعتبر الباث الحيوي الذي يشغل ثنايا ومفاصل القصة، ويشترك في صناعة رؤية قصدية من الكاتبة، تمدّ النص بالرصانة، فتقنية الذاكرة الاسترجاعية التي تلاحق العمل من بداياته ووصولا إلى استقرار رؤاه و مطامحه، تعدّ من الموجهات الفاعلة للمتن بوصفها إضاءات تعضيدية تسعى إلى تمرير الوعي و الفكر عبر المدلولات المعرفية، إذ تتعدد إشعاعات الذاكرة لتدخل في تشكيلات العناصر السردية للقصة، لتؤكد عملها في مضمار الأحداث و الشخصيات الروائية عبر الزمان والمكان، فتعيد تشكيل رؤى حقيقية، لوقائع راسخة فيها تعدّل من المسار السردي، و تضيف لملامحه رؤى جديدة، وممّا يؤكد تجليات الذاكرة السردية في المدونة أنها تنقب في الخبايا، لتذكر مقموعا، وتعدّل فهما تداخلت فيه الالتباسات [34].

فزينب وهي تسترجع عبر ذاكرتها الحية تفاصيل ومراحل خروجها وابنها من قيد الاستعمار والمجتمع إلى رحابة الوعي وتجاوزها لضعفها وخوفها، والجهل الذى طوّق أهل قريتها، تسترجع معه حالة عامة عرفها المجتمع الجزائرى، واجبارية السلطات الاستعمارية على تجنيد أبناء الشعب، واللاوعي بخطورة ما تصبوا إليه من خلق فتنة وتفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وطمس هويتهم.

"... فها هى الإدارة العسكرية، بدأت تشكل قوائمها لاختيار شباب الخدمة العسكرية، مقياسها الأول والأخير فى ذلك، الشباب والعنفوان، وهدفها إفراغ الساحة من أي عنصر شاب، يمكن أن يسبقها إليه جيش التحرير، قائد هذا التمرد الشعبي الداهم..." [35]

فحضور خطاب الذاكرة في القصّة، يندّ عن رغبة الكاتبة الجامحة، في "التعبير عن قضايا المجتمع واسترجاع أبرز الأحداث التاريخية التي عاشها، فمن واجب الكاتب أن يبقى مندمجا في مجتمعه متأثرا بآلامه وهمومه، غير أن رسالته الجوهرية لا تكمن في مسايرة مستلزمات الذاكرة المجتمعية، بقدر ما تكمن في توجيه هذه الذاكرة وترشيدها، فلا ينفع المجتمع أن يستحضر الذكريات الماضوية التاريخية قصد التغني بها لكونها جزءا من هويته"" [36]، وإنّما الهدف منها هو أخذ العبرة من أجل خدمة المستقبل.

" راجت تسترجع كل ذلك بابتسامة تملأ الوجه كله، وتعطي للقلب الكهل نبضا معتدلا هادئا،في صوت اللحن المداوي يبعث على الاسترخاء، لا يمكن أن نشعر به إلا فى حالة الفصل الدقيق، بين حالة هدوء وأمن نعيشها اللحظة.." [37]

كما أنّ هم ونيسي يتمحور أيضا، فى رغبتها العارمة على إبراز مكانة المرأة، والتي بإمكانها أن تلعب دورا محوريا، ففترة الثورة الجزائرية كانت استثنائية فى تاريخ الجزائريات، اللواتى حققن فى ظلها حريتهن وأثبتتن وجودهن، متجاوزين كل ما يقوّض شخصيتهن،وقراءة وعيهن إبان فترة الاحتلال بوصفه حدثا أثر فى سلوكهن، وغيّر بؤر اهتماماتهن،" إذ أنه فى أعقاب اندلاع الثورة، ظهرت تغيرات مفاجئة شاملة وبعيدة المدى فى وضعية المرأة، لقد كانت الحرب فرصة لتعبر المرأة عن نفسها بصورة مضاعفة تثبت قوتها للمستعمر.، وأبرزت الثورة المسلحة صورة المرأة المحاربة والمناضلة والمشاركة، فكان حضورها هذا دليلا بارزا على التحول الاجتماعي الذى وقع فى البلاد وفرض مساهمة كل مواطنفي محاربة الاستعمار"[38]، لتتقدم القصة لنا بصورة لوعي المرأة الجزائرية المناضلة عبر سلوكها و أفعالها.

" وزينب امرأة بسيطة أمية كانت من بين المئات من الزينبات، والعائشات، والفواطم، يتصرفن في كل الظروف، بوحي الإلهام.. وتقودهن عاطفة مشبوهة جارفة، اختلطت أسبابها وعناصرها، فهي في الابن والزوج، وفي الأرض والسماء، وفي قيم أخرى ندركها ونؤمن بها، ونموت من أجلها، ولا نراها لأننا لم نعرفها بعلم أو تجربة، بل ولدت بين حنايانا وعششت وفرّخت في عروقنا وتجددت ولادتها كل مرة، مع كل مولود نجيء به للحياة"[39]

فزينب كذات امرأة فقيرة، أميّة محكومة بالضعف، تجاوزت عاطفتها وكسرت أغلال المجتمع، لتتقدّم لنا في صورة الأم الجزائرية المكافحة بقوة إرادتها، وطول صبرها، فغياب زوجها لم يربكها ولم يضعف عزيمتها من حماية عائلتها.

" وهي التي تعيش على معيزات تركها ذلك الغائب الحاضر....

تشدّ الحزام أكثر كلّما وضع الطعام...

وكأنها شبعانة.. وتتأخر عن المائدة حتى تشبع عائلتها... وتقتات هي على ما تبقى ...

وأقل ما تبقى.... "[40].

فالواقع المزري الذي فرضه الاحتلال، وإدراكها بأن الوطن والهوية أقوى من إحساس فراقها لابنها، ولّد داخلها إحساسا بالوجود وإيمانا بمستقبل حياة كريمة في ظل الحرية والاستقلال، ففي غمرة خوفها عليه الذي وإن التحق بصفوف التجنيد الاستعماري، سيتحول إلى جبهة يوما ما سترفع السلاح ضد والده والثوار، أدركت ذاتها، ووعت بواقع الأزمة، لتستمد صلابتها واعتدادها بنفسها قوة تمنحها إيمانا بهدفها ونبل موقفها، المتسلّح بوعي ثوري، استطاع الوقوف في وجه أساليب التكييف التي يزرعها الاحتلال داخل المجتمع الجزائري من أجل فرنسته،لتتجلى درجة وصول وعي وينب القائم إلى ذروته، من خلال رفضها لتجنيد ولدها و بحثها عن حلول لهذا المشكل،"فسيرى يا زينب ما الذى سيحصل؟، الذى سيحصل ... هو أنّ ... هو أنّ إبنى سيصبح ليس إبنى ... لأنّ إبنى بعد أن تجنّده الإدارة الحاكمة سيقتل حتما، وفي يوم من الأيام، أباه.. نعم الذي ولده. أو سيقتل عمه أو خاله، أو أن هؤلاء جميعا سيقتلون إبني... إبنهم..." [41].

لتغيّر زينب تلك الصورة النمطية السلبية عن المرأة التقليدية الأميّة، المستسلمة تمام الاستسلام لواقعها ولظروفها،صاحبة التفكير البسيط، والوعي العفوي والمحدود، والاهتمامات البسيطة، القدريّة إلى حدٍ بعيد، والخاضعة بصورة شبه تامّة للرجل، وتتقدّم في صورة المرأة التقليدية الإيجابية، " فهذه الشخصية واضحة النضج على مستوى الأفكار، وكذلك فهي شديدة الفعالية والعطاء على مستوى السلوك"[42]، برغم كلّ ما تعيشه من ظروف صعبة، فيها من البؤس والقلق والخوف والترقّب ما يثقل كاهلها ويضعف قوتها، إلاّ أنّها آثرت أن تغالب مشاق الحياة من أجل أسرتها، التي أصبحت الراعي الوحيد لها بعد غياب زوجها ، ليتجلى دورها الفاعل في ظل هذه الأوقات الصعبة، فالثورة وفقا لذلك "لم تكن ضد المستعمر فحسب بل كانت أيضا ضد الأفكار البالية التي تميز الذكر والأنثى في الإنسانية، ..كانت زينب يومها وساعتها، وقبل خمس وعشرين سنة، تخبز الكسرة، لوليها وحماها الشيخ، لأن زوجها الغائب لم يعد يستطعم لا كسرتها الدافئة ولا أحضانها الأكثر دفئا.. "[43]

من هنا يطالعنا البعد الرؤيوي الاجتماعي للزهور، عن المرأة النابعة من الواقع الحي الذي تعيشه في ظل الاحتلال، وتطمح إلى تغيير واقعها بكل مالها من قوة، بممارستها شكلاً من أشكال الوعي المقاوم ، وقهر الواقع الاجتماعي القاسي الجاهل الذي لا يعلم حجم هول الأزمة، حيث تسعى إلى التأكيد أن جهل المرأة، لا يعني عدم وعيها، فزينب وإن كانت لا تملك حسا ثوريا، وليست من النساء اللواتي انخرطن في صفوف الثوار، إلاّ أنها وعت فطريا بالأزمة التي يعيشها الشباب الجزائري اليافع وتجنيده بالقوة في صفوف الاحتلال، لتقرّر تسليم ولدها بيدها للثوار، وهنا يتجلى الوعي القائم في القصة بما تمثله الطبقة الاجتماعية " وما يحدث فيها من تغيرات، لا تمسّ طابعها الطبقي المميّز لها، وبذلك فإنّ ارتباط الوعي الفعلي، الذي تعبّر عنه الطبقة بتصرفاتها وسلوكها وعلاقاتها مع الطبقات الاجتماعية بالوعي الممكن قائم ووثيق.. هو المحرّك الفعّال لفكرة الجماعة، بل هو الذي يرسم مستقبلها، ويعطيها صورتها الحيوية في الحاضر، والمستقبل"[44]

فهذا التحول على مستوى شخصية زينب، معنى دال على وعي ممكِن وطامح نحو أفق أكثر استنارة، وأكثر وعيا بضرورة تغيير القائم إلى ممكن،فالظرف الاستعماري الذي عصف بقريتها، ومحا استقرارها غير تركيبتها وكينوناتها ،حيث

سعت إلى تحرير ولدها وتحرير أمومتها مدفوعة إلى ذلك دون أن تعي فعليا بحجم العملية التي تقوم بها والتي هي من صميم العمل الثورى، "ومع غروب شمس الخريف، وقد بكر الظلام بالسقوط، بمساعدة غيوم الخريف الملبّدة...ونهاره القصير...كانت زينب تقود إبنها الشاب ممسكة بيده غير مقصودة، وكأنه سيفلت منها، متسللة به بين الأدغال والوهاد، ... دون أن تتوقف لحظة لاسترجاع أنفاسها المتقطعة، أو تجيب عن أى كلمة أو سؤال انحبست فى صدر الصبي المذهول، وقد أبكمته المفاجأة، صبي يحمل سبعة عشر ربيعا، إنه لا يفكر إلا في كسرة مضمونة .. وقشابية جديدة، وأشياء أخرى... "[45].

فخطوة زينب خطوة إيجابية اتجاه واقعها الاجتماعي وجهل أهل القرية المسلّمين للمكتوب، مقدّمة بذلك" جزءا من إحساس جماعي عام، يتجاوز الفردى، وتذوب فى نيرانه الهموم الذاتية"[46]، لنرصد فى ظله رؤية واعية ومدركة لمطالب السلطة الاستعمارية التي تعمد إلى زرع التفرقة بين الجزائريين، وتصفية بعضهم لبعض، رؤية ناقدة وناقمة للواقع الاجتماعي القائم على الجهل والسطحية واللامسؤولية وعدم وعي أهل القرية للخطر المحدق بهم كجزائريين.

"رباه.. إنها لا تريد أن يحصل ما نفكر فيه، إنه الضياع الأبدي أن تفقد رجالها وكيف؟ أن يقتل أحدهم الآخر..وأهل القرية.. هؤلاء الجهلة الضائعون.. الذين لا يدركون ما ينتظرهم، ومع ذلك فهم أدرى بمصالحهم، إن بعضهم لا يريد أبدا أن يفكر...وكل شيئ عندهم مقدر ومكتوب... "[47]

ففي ظلّ حوار نفسي (المنولوج) لتحليل الذات، و من خلال التساؤلات المصيرية المطروحة عبر الشخصية البطلة، والأزمة التي تعيشها بسبب الصدام النفسي القائم بين خضوعها للواقع وبين رفضها وتغييرها، ومحاولتها فهم ما يدور حولها، تطرح القاصّة فكرة الصراع وصلتها بالذات المؤنثة، كعامل حركي يغذي مسارها ويبرز دورها الفاعل، ويعري مشاعرها ويفضح قلقها وحيرتها في البحث عن الذات[48]، كما تصبوا في الآن ذاته إلى تقديم رؤية لشكل من أشكال الوعي الذي ينشد التغيير والخلاص، وعرض صورة لامرأة "تحاول بناء ذاتها، و إعادة تنظيم نظامها الفكري، من خلال التعبير عن همها الخاص الملتحم بالهم الجمعي"[49]، والالتباس والاندماج بالذات الوطنية، لتصل بذلك إلى أقصى درجة من الوعي القائم، من خلال تحليلها و تشخيصها لتشوهات الواقع، وإدراكها وتفطنها لموقعها و حالتها، الرافضة للخضوع ، لتبدأ فكرة تغيير (الواقع)بالظهور، في إشارة إلى بوادر الوعي الممكن.

" فهل يعقل هي اليوم، أن تترك ابنها، بكرها تأخذه منها الإدارة الحاكمة، وتلبسه تلك الملابس الزيتية اللون، وتحمّله بندقية، وتأمره أن يضرب بها صدور أولئك الذين يوجد بينهم، أبوه، وعمه، خاله؟

ويصبح ابنها بين لحظة وأخرى، كافرا يقتل إخوانه المسلمين.

ويصبح ابنها بين لحظة وأخرى، خائنا لوطنه ودينه.. مواليا للحاكمين الغازين...

... وكيف يعقل أن يصبح بعد كل ذلك ابنها حبيبها" [50]

فأهل القرية، يمثلون الذوات المتصالحة مع واقعهم ولا يفكرون في تغييره وراضين بما قسمه لهم المكتوب، ونشير هنا إلى رؤية إيديولوجية تخدش صورة المجتمع الجزائري الموحد إبان فترة الاحتلال، فرغم جهله وفقره إلا أن لا شيئ استطاع أن يلغي وطنيته ووعيه بحجم الأزمة، وهو ما يقدّم لنا فكرة حول التفاوت الحاصل بين الوعي الأيديولوجي للكاتبة، ونوعية التصور الذي تتضمنه القصة ولهذا نبه لوسيان غولدمان إلى عدم إعطاء أهمية كبيرة وخاصة في فهم العمل الأدبي "للنيات الواعية للأفراد- وللنيات الواعية لكاتب الأعمال الأدبية، حين يتعلق الأمر بهذه الأعمال، فالوعي لا يشكل في واقع الأمر سوى عنصر جزئي للسلوك البشري، وهو يمتلك في أغلب الأحيان مضمونا غير مطابق للطبيعة الموضوعية لهذا السلوك، لذلك فالأيديولوجيا تظهر عند الطبقة الاجتماعية غالبا ما تخفي وراءها التصورات الحقيقية لطبيعة فهمها للواقع، لقد كانت فكرة الشعب الموحد لها بريقها الخاصّ"[51]، فالقصة عبّرت عن رؤية أيديولوجية، تصدر الكاتبة فيها حكما عن أهالي القرى والمداشر، وبأنهم استسلامهم للواقع ومحاولات الاستعمار لطمس هويتهم نابع من جهلهم، وهو ما يحيل إلى أنه ثمة تداخل واختلاط، يظهر على مستوى التأويل المضموني، لبعض الأحداث والمواقف التي حملت أبعادا ليس لها علاقة بالمجتمع الجزائري وبأفراده.

وعن رهان ونيسي فهو رهان زينب الملتبسة بكل النساء الجزائريات الواعيات، اللواتي يسعين إلى التغيير، ونبذ كل صورة مشوهة عنهن، وبأنهن عنصر من عناصر النضال الوطني، الذي وجدت في ظله استقرارها وتوازنها النفسي ،

فالكاتبة اعتمدت في التأسيس لحبكة الرواية على وعي الشخصية البطلة التي ارتبطت وجدانيا بقضية وطنها، لتمثل صورة " خارجة عن المألوف في اندفاعها وتقدمها المنتفضين، وجرأتها في مواجهة جند الاحتلال"[52]، فالمرأة الأمية نزعت عنها ثوب الضعف، وأقدمت على ما لم يستطيع أحد من أهل القرية على فعله، وهي لا تملك سوى معيزات تسد بها رمق ولديها، وأقراط ذهبية، هونت عليها همها ببيعها وتقديمها للثوار ثمنا لتجنيد ابنها، " إنها حتما لا تحلم ها هي تتذكر بثبات عقل، أن ما تحمله أذناها إنّما هي أقراط ذهبية، كانت زينب وكأنها تكشف عالما جديدا.. أليست الحدايد للشدايد كما يقولون؟.. وتركز ذهنها على أنها كانت في شدو، وهاهي تجد الحل لمشكلتها... ابتسمت زينب وهي تنتصب جالسة،ابتسامة الغائر المنتصر...، إنها لا تسمح أبدا أن تقع مجزرة ، وهي على الحياة. يقتل ابنها أباه، أو خاله،أو عمه..أو هؤلاء جميعا متفرقين أو مجتمعين، يقتلون ابنها حبيبها..."[53]، مجسد بذلك صورة من صور المقاومة الشرسة لامرأة لم تنهار، ولم تستسلم مثلما استسلم أهل قريتها، مبينة أن فعل المقاومة لا جندر له، يتساوى فيه الرجل والمرأة، "واشتدّ وقع خطواتها ودقّات قلبها على الأرض والظلام، وكأنها في كل خطوة تجهز على ذلك التنين الكبير من الحيرة والعذاب، وتحاول القضاء عليه قبل أن يقضي عليها ويقضي على هذه الروابط التي تربط أسرتها الصغيرة رغم تفرقها....وعلى هذا التوازن والاستقرار والرضا الروحي والنفس الذي تعيش عليه "[54].

ومن هنا نلمس" مستويات للوعي الممكن عند الطبقات المختلفة، وهذه المستويات هي التي تحدّد درجة ما تطمح إلى تغييره، كل منها في الواقع السائد، فإذا كان الوعي الممكن عند طبقة ما يهدف إلى تغييير طفيف في عناصر الواقع السائد، بحيث لا يريد إبدال ركائزه الأساسية، فهو يعكس تصالحا مع هذا الواقع، وإذا كان الوعي الممكن لطبقة أخرى يهدف إلى تغيير أساسي في الواقع السائد، فإن هذا الوعي الممكن يقف موقفا انتقاديا من ذلك الواقع"[55]، لتتجاوز الكاتبة في هذه القصة التصوير إلى الرغبة في التغيير، وقدرة المرأة على تحصيله، واحلال بدل الواقع المحتوم، واقعا مغايرا، كما ترصد لنا رحلة الوعي الأنثوي للشخصية البطلة، والتي مرّت بمرحلتين من الوعي الكائن إلى الوعي الممكن،" فالوعي الفعلي هو وعي قائم في الواقع، وعي بالحاضر، أما الوعي الممكن فهو وعي مستقبلي وهو ما يمكن أن تفعله هذه الطبقة الاجتماعية لتغيير هذا الحاضر و تطويره، إن الوعي الممكن ينشأ من الوعي القائم و لكن يتجاوزه ، فالوعي بالحاضر يولد وعيا نقديا بإمكانية تغييره للوصول إلى درجة أعلى من التوازن المفقود في هذا الحاضر"[56]، وهو ما يعطينا مؤشـــرا لرؤيـة رحبة عن المرأة الجزائرية، رؤيـة واضحة المعـالم يعكســها الواقـع الاجتمـاعي الواقع تحت نير الاستعمار الغاشم.

" إنه يوم عطلتنا؟ إنّ اليوم ذكرى الحرية يا جدتي، عشرون سنة كاملة قد مرّت على الاستقلال.

وأجابته زينب بابتسامة كبيرة مشرقة.. وهي تمدّ يدها ليساعدها على النهوض.. وقد استرجعت نفسها في الحاضر..

- حقا الحمد لله كانت، وهي تنتصب واقفة، بقامتها اللطيفة بمحاذاة حفيدها الشاب، كشجرة سام تمدّ ظلالها على حفيدها وعلى جميع الأحفاد.."[57]

لتمسي زينب الذات الأنثوية المتغيرة،التي لم تخضع لواقع الأزمة، و انخرطت في صفوف المناضلين بروحها، التي تعززت بالوعي لحظة إدراكها أن تجنيد ابنها في صفوف العدو، سيخلق أزمة كبيرة بين أبناء الوطن الواحد، لتحمل على عاتقها مسؤولية تسليمه للثوار، تصرف يرمز للانعتاق الذي امتدّ بظلاله على كل أبناء الوطن الجزائري ويتحقق الاستقلال، في ضوء صورة كل امرأة تشبهها، رفضت الخنوع والتسليم للجهل والمكتوب على رأي أهل القرية.

" وزينب تشعر شعورا طاغيا ، أن كل يوم تعيشه ، إنّما هو ربح لم تكن تطمع فيه،أو تطمح إليه، فائض عن الأيام التي كان يجب أن تعيشها، لقد كسبت من الحياة كل هذه السنوات الأخيرة، التي تسمى سنوات الاستقلال، لأنها كانت، هي في خضم الثورة، تتصوّر أنها لن تحضر احتفالات وأعراس الحرية، وهي التي عايشت أعراس الدم والدموع والعذاب، وشاهدت الموت يخطف، ويغتال، ويحصد،دون شفقة أو تمييز بين صغير وكبير،أو بين الإنسان والحيوان والطبيعة،.... وربيع الشباب والإنسانية ينحر..."[58].

وعليه فإن القصة ترصد لنا التغيير والتحول الفعلي لوعي الشخصية البطلة وتجاوز الظروف الاجتماعية التي تعيشها، وأن الاختيار الإنساني يعد أمرا أساسيا وضروريا لتحقيق الممكن.

-. خاتمة:

تسوق ونيسي عبر قصة زينت "فكرة أن الإنسان قادر على التغلب على حالة انفصال الذات والموضوع : الموضوع هو موضوع ، مع ذلك ، فإنه ينتفي كموضوع ، كما أنه من خلال هذا الدنو يصبح الإنسان متوحدًا مع الموضوع.. إن الإنسان من خلال تواصل ذاته مع العالم الموضوعي ، بشكل إنساني ، يقهر الاغتراب الذاتي"[59].

وعن اهتمامها بالمرأة وقضاياها وواقعها الاجتماعي، فقد بدأ من ذاتها التي تنكرت لتلك العادات والتقاليد البالية، و يرجع الفضل في ذلك لوالديها والتنشئة العائلية التي عززت الثقة في نفسها، وكانت أهم مدرك في تكوين شخصيتها لتدخل عالم الكتابة و كلها إصرار على دعم المرأة والانتصار لها بنصوصها ومواقفها.

الثور ة الجزائرية مدرك آخر عزّز شخصية كاتبتنا، رصدت في ظلها الواقع الاجتماعي للمرأة الجزائرية ووعي الذات الأنثوية بطبيعة هذا الواقع وتحولاتها من الكادر النمطي إلى كادر المقاومة.

إنّ هذه المدركات التي تجلت عبر عتبة الإهداء جعلت زهور ونيسي عبر قصص الظلال الممتدة و قصة زينب بالذات، تتخذ من الإبداع وسيلتها للوعي، لتصل بالذات الأنثوية إلى مرحلة أخرى، مرحلة التحرر وفهم الكينونة.

تتقدّم قصة زينب بصورة للمرأة والذات الأنثوية المتحولة والمتغيّرة مع أطوار أزمة الاحتلال ، التي تبحث عن ذاتها ووجودها، وقدرتها على التمرّد بوعي، و تجلت رحلة الوعي في إطار رؤيا غولدمانية(من الوعي القائم إلى الوعي الممكن).

-. قائمة الإحالات:

[1]: زهور ونيسي، الظلال الممتدة قصص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،د/ط، 1985،ص:8

[2]: بعلي حفناوي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية، تأثيث الكتابة وتأثيث بهاء المتخيل،مكتبة اليازوري، د/ط، د/ت، ص:7

[3]: لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية، ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/1، 1985،ص:10/9

[4]: جورج لوكاتش،معنى الواقعية المعاصرة،تر: أمين العيوطى،دار المعارف، القاهرة،د/ط، 1971،ص99/98

[5]: فاطمة علي عبود،رؤية العالم الروائي في روايات ابتسام تريسي نماذج مختارة،مجلة الدراسات، ع/ 16،تموز/ يوليو 2021،ص:254

[6]: زهور ونيسي، الظلال الممتدة،ص:7

[7]: لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية،ص:9

[8]: ليندا‌ء عبدالرحمن عبيدتحولات الذات الأنثوية وتنوّع المستويات السردية في رواية" دارية،"كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن.، 2014، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 41 ، ملحق2 ،ص: 785

[9]: بدر عبد المحسن طه ،الروائي والأرض، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة،د/ط،د/ت، ص28.

[10]: ليندا‌ء عبد الرحمن عبيد تحولات الذات الأنثوية وتنوّع المستويات السردية في رواية" دارية، ص: 777.

[11]: فيـروز زوزو ، الذات والمزضوع في روايات غادة السمان ـ مقاربة بنيوية تكوينية، رسالة دكتوراه، إشراف: نزيهـــة زاغـز جامعـــة محمـــد خيضـــر بسكـرة ،كليـة الآداب واللغـات قسـم الآداب واللغـة العربيـة، 2017/2016،ص :182

[12]: بعلي حفناوي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية، تأثيث الكتابة وتأثيث بهاء المتخيل،ص:105

[13]:زهور ونيسي، الظلال الممتدة، ص:08

[14]: حادي نورة، تجربة الكتابة عند زهور ونيسي،مجلة حوليات، جامعة بشار في الآداب واللغات،ع/2018،20، ص:3

[15]: عبدالله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط/3، 2006، ص:8

16: نادية هناوي،رؤيا العالم النسوية في رواية "سيدات زحل" للطفية الدليمي،

https://www.iraqicp.com/index.php/sections/literature/20972-2019-06-02-19-51-44، يوم: الخميس 2021/10/14، الساعة 15:42

[17]: بوخالفة ابراهيم، رؤية العالم في رواية رأس المحنة للروائي الجزائري عز الدين جلاوجي، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، المركز الجامعي تيسمسيلت، الجزائر، السنة 02، المجلد 02، ع/03، يناير 2018، ص:171.

[18]: إسماعيل نور الربيعي، حول مفهوم رؤية العالم https://elaph.com/Web/ElaphWriter/2007/11/281463.html، يوم 2020/12/21، الساعة:07:45

[19]: سعيد علوش: الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، د/ط، 1981 ،ص:30

[20]:عنق صبحة أحمد، رواية سيدات زحل: رؤية نسوية للخراب،المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها،جامعة مؤتة، الأردن، مج11،ع/3،2015،ص42

[21]:شي عجناك يمينة،التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر (إشكاليات و قضايا في تجربة زهور ونيسي الإبداعية)،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي تامنغست،الجزائر،ع/ 8، ديسمبر 2015،ص:248

[22]: الرواية، ص:11

[23]:رويدي عدلان،خطاب الثورة في الرواية النسائية الجزائرية بين سلطة الالتزام وهاجس التجريب -زهور ونيسي وأحالم مستغانمي نموذجا-، العلامة،ع/6،2018،ص:46

[24]: حادي نورة، تجربة الكتابة عند زهور ونيسي،ص:5

[25]: بعلي حفناوي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية، تأثيث الكتابة وتأثيث بهاء المتخيل،ص:323

[26]: رويدي عدلان،خطاب الثورة في الرواية النسائية الجزائرية بين سلطة الالتزام وهاجس التجريب -زهور ونيسي وأحالم مستغانمي نموذجا-، ص:47

[27]: الرواية، ص: 8

[28]: ليندا‌ء عبدالرحمن عبيدتحولات الذات الأنثوية وتنوّع المستويات السردية في رواية" دارية ص: 778

[29]: الرواية،ص:18

[30]: عبد الله أبو هيف، المغيرة الهويدي، الوعي والوعي الممكن في رواية قلوب على الأسلاك، مجلة جامغة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 31، ع/2، 2009،ص:181

[31]: عبد القادر فيدوح : سراديب الذاكرة في رواية "الحب ليلا" لعز الدين جلاوجي،التأويل وتحليل الخطاب،ع/2، أكتوبر 2020،ص:12

[32]: الرواية،ص:14

[33]: الرواية،ص:23

[34]: وناس سعيد حميد كاظم، سلطة الذاكرة الروائية و تمظهراتها السردية في عشاق و فونغراف و أزمنة، مجلة المستنصرية، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب،المجلد 45، ع/90، سبتمبر 2020،ص:76

[35]: الرواية،ص:15

[36]: شفيقة عاشور: اشتغال خطاب الذاكرة في رواية "بحر الصمت" لـ "ياسمينة صالح"،مجلة التأويل وتحليل الخطاب، المجلد الثاني ،ع/1، ماي 2021،ص:201

[37]: الرواية،ص:14

[38]: مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ط/2، 2009،ص:18

[39]: الرواية،ص:15

[40]: الرواية،ص:19

[41]: الرواية،ص: 17

[42]: وائل علي فالح الصادي،صورة المرأة في روايات سحر خليفة، ,دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، د/ط،د/ت،ص:141

[43]: الرواية،ص: 15

[44]: عبد الله أبو هيف، المغيرة الهويدي، الوعي والوعي الممكن في رواية قلوب على الأسلاك، ص:180

[45]: الرواية،ص: 17

[46]: غادة محمود عبد الله خليل، صورة المرأة في الرواية النسائية في بلاد الشام (1951 ــ 2000)، إشراف:صلاح جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2004،ص: 185

[47]: الرواية،ص: 18

[48]: ينظر:بعلي حفناوي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية، تأنيث الكتابة وتأنيث بهاء المتخيل ،ص: 117

[49]: فيروز زوزو ،الذات والموضوع في روايات غادة السّمان، مقاربة بنيوية تكوينية،ص:13

[50]: الرواية،ص: 12

[51]: لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية، ص:126

[52]: عواد أبو زينة، أصوات من الحصار(رواية الضفة الغربية وقطاع غزة 1993ـ 2005 (المضمون والبناء)، منشورات إي كتب، لندن، ط/1،د.ت،ص:142

[53]: الرواية، ص:19

[54]: الرواية،ص: 21

[55]: لحمداني حميد، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية،ص:31

[56]: فيروز زوزو ،الذات والموضوع في روايات غادة السّمان، مقاربة بنيوية تكوينية ،ص: 13

[57]: الرواية،ص: 23

[58]: الرواية،ص: 14/13

[59]: إريك فروم ، مفهوم الإنسان عند ماركس ، تر:مُحَمَّد السيد رصاص، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية،ط/1، 1998،ص:56

المصادر والمراجع:

المصادر:

* زهور ونيسي، الظلال الممتدة قصص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،د/ط،1985

المراجع:

*بدر عبد المحسن طه ،الروائي والأرض، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة،د/ط،د/ت

*جورج لوكاتش،معنى الواقعية المعاصرة،تر: أمين العيوطي،دار المعارف، القاهرة،د/ط، 1971

* حميد لحمداني ، الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي، دراسة بنيوية تكوينية، ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/1، 1985

*سعيد علوش، الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، د/ط، د/ت،1981

* مفقودة صالح، المرأة في الرواية الجزائرية، ط/2، 2009

*صالح مفقودة: نصوص وأسئلة دراسات في الأدب الجزائري، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين،ط/1،2002

*عبدالله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط/3، 2006

* عواد أبو زينة، أصوات من الحصار(رواية الضفة الغربية وقطاع غزة 1993ـ 2005 (المضمون والبناء)، منشورات إي كتب، لندن، ط/1،د.ت

*وائل علي فالح الصمادي،صورة المرأة في روايات سحر خليفة، ,دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، د/ط،د/ت

المراجع المترجمة:

*إريك فروم ، مفهوم الإنسان عند ماركس ، تر:مُحَمَّد السيد رصاص، دار الجصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية،ط/1، 1998

المجلات والدوريات:

* ابراهيم بوخالفة ، رؤية العالم في رواية رأس المحنة للروائي الجزائري عز الدين جلاوجي، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، المركز الجامعي تيسمسيلت، الجزائر، السنة 02، المجلد 02، ع/03، يناير 2018

* أحمد عنق صبحة ، رواية سيدات زحل: رؤية نسوية للخراب،المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها،جامعة مؤتة، الأردن، مج11،ع/3،2015

*ليناء عبدالرحمن عبيدتحولات الذات الأنثوية وتنوع المستويات السردية في رواية" دارية،"كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن.، 2014، دراسات، العلوم الإنسانية *والاجتماعية، المجلّد 41 ، ملحق،2

*شفيقة عاشور: اشتغال خطاب الذاكرة في رواية "بحر الصمت" لـ "ياسمينة صالح"،مجلة التأويل وتحليل الخطاب، المجلد الثاني ،ع/1، ماي 2021

*عبد الله أبو هيف، المغيرة الهويدي، الوعي والوعي الممكن في رواية قلوب على الأسلاك، مجلة جامغة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 31، ع/2، 2009

*عبد القادر فيدوح : سراديب الذاكرة في رواية "الحب ليلا" لعز الدين جلاوجي،التأويل وتحليل الخطاب،ع/2، أكتوبر 2020

* عدلان رويدي ،خطاب الثورة في الرواية النسائية الجزائرية بين سلطة الالتزام وهاجس التجريب -زهور ونيسي وأحلام مستغانمي نموذجا-، العلامة،ع/6، 2018

* فاطمة علي عبود،رؤية العالم الروائي في روايات ابتسام تريسي نماذج مختارة،مجلة الدراسات، ع/ 16،تموز/ يوليو 2021

*وناس سعيد حميد كاظم، سلطة الذاكرة الروائية و تمظهراتها السردية في عشاق و فونغراف و أزمنة، مجلة المستنصرية، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب،المجلد 45، ع/90، سبتمبر 2020

* نورة حادي، تجربة الكتابة عند زهور ونيسي،مجلة حوليات، جامعة بشار في الآداب واللغات،ع/20،2018

* يمينه شي عجناك ،التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر (إشكاليات و قضايا في تجربة زهور ونيسي الإبداعية)،مجلة إشكالات في اللغة والأدب،معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي تامنغست،الجزائر،ع/ 8، ديسمبر 2015

الرسائل الجامعية:

*غادة محمود عبد الله خليل، صورة المرأة في الرواية النسائية في بلاد الشام (1951 ــ 2000)، إشراف:صلاح جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 2004

*فيروز زوزو ،الذات والموضوع في روايات غادة السمان، مقاربة بنيوية تكوينية،إشراف، نزيهة زاغز ، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه " ل.م.د " في الأدب العربي تخصص: أدب حديث و معاصر،جامعة محمد خيضر بسكرة كلية الآداب واللغات قسم الآداب واللغة العربي،2017/2016.

المواقع:

***إسماعيل نور الربيعي، حول مفهوم رؤية العالم https://elaph.com/Web/ElaphWriter/2007/11/281463.html

*نادية هناوي،رؤيا العالم النسوية في رواية "سيدات زحل" للطفية الدليمي،

https://www.iraqicp.com/index.php/sections/literature/20972-2019-06-02-19-51-44